

مظاهر الإبداع في مدائح أبي تمام

الدكتور محمد موسوي بفرودي *

الدكتور شاكر العامري **

الملخص

قد كان أبو تمام من أبرز الشعراء المادحين، حيث أبدى وأعاد في المدح وسلك فيه طريقاً يختلف عما كان يسلكه الجاهليون والإسلاميون. نشأ أبو تمام في دمشق يعمل عند حائك ثم انتقل إلى حمص حيث نظم قصائده الأولى ووصل إلى المعتصم وصار شاعره الخاص، وقد كان قبل ذلك مطروداً محروماً من قبل الخلفاء الذين كانوا قبل المعتصم. يمتاز أبو تمام بما في مدحه من منطق و اتساع أفكار وحكم وأمثال سائرة مبثوثة في تضاعيف أبياته، وما فيه من عصبية عربية تحمل على الإسراف في ذكر مناقب العرب وتزيين الحياة البدوية ومساكن الأعراب وقبائلهم.

فقد استطاع أبو تمام أن يحوّل قصائده التي مدح بها المعتصم واصفاً شجاعته وشجاعة جنوده، استطاع أن يحوّلها إلى ملاحم نابضة بالحياة والحركة لما بثّ في جماداتها من روح الحياة فجعلها متحركة ناطقة. وكما كان يباليغ في مدحه كان يباليغ في وصفه كذلك، فقد كان وصفاً ماهراً، بل رسماً مصوراً يعتني بلوحاته أيما اعتناء وهو لا ينسى في رسمه للطبيعة ممدوحه رابطاً بينه وبين الطبيعة ليمنّ في نهاية المطاف على ممدوحه، بشكل غير مباشر طبعاً، أنه مدحه بأفضل ما يكون من الأشعار وليتخذ من ذلك ذريعة ليمدح شعره ويعلّي من شأنه أكثر من إعلاء شأن الممدوح.

كلمات مفتاحية: أبو تمام، المدح، المعتصم، البديع.

المقدمة

نظم الشعراء في العصر العباسي في الموضوعات القديمة من المدح وغيره كما في العصر الماضي ولكنهم لاءموا موضوعاتهم مع حياتهم الجديدة المتحضرة. وقد صوروا، في المدح، أنواعاً من الصور الحية الناطقة للصفات التي استخدموها في شعرهم كالكرم والسماحة والعلم والحزم والمروءة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة وجسّموها في الممدوحين تجسيماً قوياً. وبذلك ظلّت المدحة تبتّ، في الأمة، التربية الخلقية مع الصفات الفاضلة والمكارم النفسية. وفي مدائحهم، نجد أيضاً الأحداث

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

** أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

السياسية التي وقعت في عصورهم من الفتن والثورات والحروب الداخلية والخارجية على شكل وثائق تاريخية مهمة. ونجدهم، مع ذلك، يجنحون، في مدائحهم، إلى الأساليب القديمة، محاولين بذلك أن يُظهروا في أشعارهم الاستحكام والمتانة الشعرية التي وجدت في تلك الأساليب. وقد كان أبو تمام أبرز أولئك الشعراء، حيث أبدى وأعاد في المدح وسلك فيه طريقاً يختلف عمّا كان يسلكه الجاهليون والإسلاميون.

هو حبيب بن أوس الطائي صليبة^١. ولد بقرية يقال لها حاسم سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م)^٢. وكان أبوه رومياً مسيحياً اعتنق الاسلام وانتسب إلى قبيلة طيء ولهذا لُقّب بالطائي، وبعض يرفع نسبه إلى طيء ويزعم أنّ والده نصرانيّ من أهل حاسم يقال له تدوس العطار فلما أسلم غيّر اسمه فصار أوساً^٣. وقال بعض العلماء: خرج من قبيلة طيء، ثلاثة، كلّ واحد منهم مجيد في بابه: حاتم الطائي في جوده و داود بن نصير الطائي في زهده و أبو تمام، حبيب بن أوس، في شعره^٤.

نشأ أبو تمام في دمشق يعمل عند حائك ثم انتقل إلى حمص حيث نظم قصائده الأولى وحيث صادف الشاعر ديك الجن^٥ وأخذ عنه بعض أساليبه. أخذ الشعر يتدفق على لسان أبي تمام، وبعد مدة وصل إلى المعتصم وصار شاعره الخاص، وقد كان قبل ذلك مطروداً محروماً من قبل الخلفاء الذين كانوا قبل المعتصم. وكان أبو تمام يشارك المعتصم في حروبه ليصف ميادين الحرب. وأنداك ألف ديوان الحماسة الذي هو عبارة عن مختارات جمعها من أشعار العرب العرباء ورتبه على عشرة أبواب أهمّها: الحماسة، المراثي، الأدب، النسيب، الهجاء، الصفات، المُلح، مذمة النساء.

توفي أبو تمام بالموصل سنة إحدى و ثلاثين ومائتين وقيل إنه توفي في ذي القعدة وقيل في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وقيل تسع وعشرين ومائتين وقيل في الحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين^٦.

١ - الصليبية: الخالص النسب (المعجم الوسيط، مادة صلب).

٢ - أبو بكر الصولي، أخبار أبي تمام.

٣ - بطرس البستاني، أدباء العرب.

٤ - ابن خلكان، معجم الأدباء، ج ٢، ص ١٤.

٥ - ديك الجن، هو عبد السلام بن رغبان، اشتهر بلقبه ديك الجن. ولد سنة ١٦١ للهجرة في مدينة حمص، وهو من شعراء الدولة العباسية وكان يتشيع تشيعاً حسناً وله مرات في الحسين رضي الله عنه وقد ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلا القليل (انظر في ترجمة ديك الجن وأخباره: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٨٤).

٦ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٧.

أهمية البحث والهدف منه

لاشكَّ أنّ الكشف عن مميزات النصوص الشعرية وخصائصها، بشكل عام، يحتلّ جانباً مهماً من الدراسات الأدبية. وما يهدف هذا البحث إلى تحقيقه لا يخرج عن تلك الدائرة، بل يحتلّ المركز منها، إذ إنّ الأفضاز في الأدب العربي الذين كانوا قدوة غيرهم من الأدباء ليسوا بالكثيرين. وإنّ الابتكارات والإبداعات التي نراها في مدح أبي تمام هي مما يميّز شعره من شعر من عصره ولذلك نرى من جاء بعده يحذون حذوه في مدائحه.

منهج البحث

المنهج الذي اتبعه البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، حيث يتمّ استقراء النصوص الأدبية وتحليلها وصولاً إلى استخراج ما يصبّ في هدف البحث منها، كما تتمّ الاستعانة بالنصوص شواهد على صحّة الاستنتاج والاستخلاص.

أبو تمام في مدحه

يمتاز أبو تمام بما في مدحه من منطوق و اتساع أفكار وحكم وأمثال سائرة مبثوثة في تضاعيف أبياته، وبما فيه من عصبية عربية تحمله على الإسراف في ذكر مناقب العرب وتزيين الحياة البدوية ومساكن الأعراب وقبائلهم وشعرائهم.

قال أبو الفتح بن الأثير في كتابه المثل السائر يصف الثلاثة: (أبا تمام والبحري والمني): «وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر و عَزَاهُ و مناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وكلمة الحكماء. أما أبو تمام فربّ معانٍ و صيقل ألباب وأذهان وقد شهد له بكلّ معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذي يبرز فيه على الأضراب....»^١.

الملحمة في مدائح أبي تمام

كان أبو تمام في شعره يتشدّد في اختيار الألفاظ وكان حريصاً على الروابط بينها وما يمكن أن تخلقه من الصور الشعرية الجميلة المعبرة. ومن ذلك أشعاره التي يصف فيها حروب المعتصم بصور رائعة متحركة أمام عيون القراء لشعره فكأنهم أمام فلم سينمائيّ أو مشاهد حيّة ناطقة. يقول من قصيدة بمدح فيها المعتصم: [الطويل]

غدا المُلْكُ معمورَ الحرّ والمنازلِ مُنَوَّرَ وَحْفِ الروضِ عذبِ المناهلِ

معتصم بالله أصبح ملجأً ومعتصماً حرزاً لكل مؤائل
... إلى أن يقول:

ترأه إلى الهيجاء أول ركب وتحت صبير الموت أول نازل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحىً بعقبان طير في الدماء نواهل^١

فإتنا نرى هنا لون الملحمة، حيث يقول إن المعتصم هو مأوى لكل من أتجه إليه، لأنه مقدم في الحروب وهو لا يخاف من الموت في هذه الميادين المخيفة ويصف جنوده بالعقبان الكاسرة في الشجاعة وسرعه القتل وإن طيور السماء تظللهم وتطير فوق رؤوسهم طمعاً في ما استطعمه من لحوم الأعداء وجث قتلهم التي سيتروكها في أرض المعركة مجبورين لانشغالهم عنها بالهروب. وفي القصيدة المذكورة كثير من هذه الموضوعات التي استطاع الشاعر وصفها بشكل جيد مصوراً وقائع التزال مبالغاً في أوصافه وصوره المرسومة، فترى الموت قد خيم على ساحة المعركة وألقى بجرانه وكلكله فيها فإذا هو سحابة بيضاء تظلل أعداء المعتصم فقط وليخرج منها جنوده كأنهم الطيور الكواسر التي تنقض على فرائسها من الجو وليتحوّل مدحه إلى ملحمة عسكرية رائعة. وقد أشار أبو تمام في هذه القطعة إلى صفة مهمة من صفات القائد هي كونه أول من يدخل ميدان الحرب، فهو لا يقف جانبا يدفع جنوده إلى الحمام، بل يقدمهم في جميع مواقف القتال ويصبر على أهوال التزال. ونجد هذا الموضوع في هذه الأبيات أيضاً: [الطويل]

ألاك بنو الأحساب لولا فعالهم درجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صهب الأعاجم أنه به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفصل الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب^١

١ - أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج ٢، ص ٤٠ - ٤١. وقوله الحرا والمنازل، الحرا: الحمى والناحية. قال في لسان العرب، مادة (حري): "والحرارة: الساحة والعقوة والناحية، وكذلك الحرا، مقصور. يقال: أذهب فلا أريتك بحراي وحراي. ويقال: لا تطر حرانا أي لا تقرب ما حولنا". والتور الزهر الأبيض واحده نورة (ج) أنوار، ومنور اسم مفعول من تفعيل، أي ظهر زهره. والوحف من النبات والشعر والجنح الواحف، والواحف هو ما غزر وأثبت أصوله واسود ومن الجناح الكثير الريش. وقوله: مؤائل اسم فاعل مزيد من وأل أو وتل بمعنى اللاجئ. قال في لسان العرب: "المؤائل المنجى وهو الملجأ، والعرب تقول: إنه كيوائل إلى موضعه يريدون يذهب إلى موضعه وحرزه". وقوله: صبير الموت يعني سحابته وظله. قال في اللسان: "والصبير: السحاب الأبيض الذي يصبر بعضه فوق بعض درجاً".

يتحدّث أبو تمام في هذه الأبيات عن العرب ويبالغ في مدحهم فيصفهم بأنهم ذوو أجماد وشرف ثابت في آبائهم ولهم أفعال شريفة لولا انتشارها لما كان هناك ذكر لمكرمة، ثم يرسم الشاعر صورة ملحمية وصف فيها يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه خالد بن يزيد الشيباني في الحرب التي قادها ضد الفرس، وهو مضي ولن يتكرر ويعتبر ذلك اليوم هو الذي يبيّن أحسن بيان حقيقة العرب وقوتهم، وهو اليوم الفاصل والقاطع الذي لم يُبقِ لكسرى لاعدّة ولا عديداً. وقوله: (صهب الأعاجم) هو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

المدح والتنجيم

قال أبو تمام بمدح المعتصم ويوثق فتحه مدينة عمورية: [البيسط]

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ	في حدّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ
بيضُ الصّفائحِ لا سوّدُ الصّحائفِ في	متونهنّ جلاءُ الشكِّ والرّيبِ
فتحُ الفتوح، تعالَى أن يُحيطَ به	نظّمَ من الشّعْرِ أو نثرٌ من الخُطْبِ
يا يومَ وقعةِ عموريةِ انصرفتْ	عنك المني حُفلاً معسولة الحَلْبِ

فالكُتُب التي يذكرها في البيت الأول معتبراً السيف أصدق منها هي كتب المنجّمين الذين لم يصدقوا في ادّعاهم، بينما أثبت الواقع عكسها وانتصر المعتصم في حربه بقوة جنوده وحده سيوفهم.

ويقول في موضع آخر من القصيدة نفسها، حكاية عن المنجّمين:

وحوقوا الناسَ من دهباءِ مظلمةٍ	إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذئبِ
وصيروا الأبرجَ العُلَيّا مُرتّبَةً	ما كان مُنقلباً منها أو غيرَ مُنقلبِ
يَقضون بالأمرِ عنها، وهي غافلةٌ	ما دارَ في فلَكِ، منها، وفي قُطْبِ

١- أبو تمام، ديوان، ج ١، ص ١٠٦. "والحَسْبُ: الكَرَمُ. والحَسْبُ: الشَّرْفُ الثابتُ في الآباءِ، وقيل: هو الشَّرْفُ في الفعلِ". (اللسان) وقوله: درجن أي مشين. قال في اللسان: "يقال للصبي إذا دبَّ وأخذ في الحركة: درَج. ودرَج الشيخ والصبي يدرُجُ درَجاً ودرَجاناً ودرَجياً، فهو دارج: مَشياً مَشياً ضعيفاً ودباً". ومضي جمع ماضٍ، صفة للسيف المخدوف، أي القاطع. وصُهَب جمع الأصهب، وهو الأشقر البشرية. وأعرَب عن: عبّر عن وبيّنت وأفصحت عن. وقوله: لا سنام ولا صلب، السنام هو ما فوق ظهر البعير والناقعة، وهو هنا كناية عن كل ما يُركب، والصلب هو فقار الظهر، ويقال هو من صلب فلان من ذريته... (ج) أصلب و أصلاب (انظر: المعجم الوسيط).

٢- أبو تمام، ديوان، ج ١، ص ٣٢. والحُفْل جمع الحافل والحافلة، المجتمع أو المجموع. وقوله: معسولة الحلب، مخلوطة بالعسل، والحلب العاقبة والحاصل والنتيجة وهو كناية عن النتائج الطيبة.

يقول إن أولئك المنجمين قد أخافوا الناس بسبب ظهور مذنب هالي في تلك السنة التي أراد فيها المعتصم أن يغزو عمورية من أن حادثة عظيمة وكارثة جليلة سوداء سوف تقع لا محالة وهذا المذنب من علاماتها. وإن أولئك المنجمين يعتقدون أن الأبراج هي التي تتحكم بمصير العالم وتسيّره. وبسروج السماء اثنا عشر؛ أربعة منقلبة، وأربعة ثابتة، وأربعة تسمى ذوات الجسدين، وهي صور نجوم فيها مدار السيارات. كما أن أولئك المنجمين قد جعلوا أنفسهم ناطقين باسم تلك النجوم وهي في الواقع بريئة مما يدعون لها من التحكم بمصير العالم والناس، فهي لاوعي لها ولا فهم، وهذا الأمر يصدق على كافة الكواكب، سواء السيارة التي تدور في فلك محدد، أو الثابتة التي لا تتغير درجة رؤيتها من الأرض كالنجم القطبي.

ففي هذه الملحمة يذكر وقعة عمورية وقد أشار فيها أيضاً إلى التنجيم الذي كان من علوم عصره وقد قارن بين السلاح وبين كتب المنجمين لأن التنجيم في ذاك العصر من العلوم المترقية التي كان الخلفاء وكثير من كبار الدولة يعتمدونها وبلغ هذا العلم من الرشد حتى ترجمت كثير من الكتب التي كتبت في هذا العصر على يد المسلمين إلى اللاتينية و في إسبانيا خصوصاً و أثر ذلك في رقيّ و تطوّر العلوم في أوروبا المسيحية كثيراً^١.

إنّ أبا تمام ينادي الأشياء المختلفة ويتكلم معها بحيال معجب شعري، كندائه حرب عمورية، في الأبيات المذكورة أعلاه، حيث يقول: «يا يوم وقعة عمورية...»، فقد اعتبر (يوم الحرب) إنساناً يناديه على سبيل الاستعارة بالكناية. أو يقول إنّ السيف يتكلم بصدق، فيقول: «السيف أصدق إنباءً من الكتب»، فقد اعتبر (السيف) إنساناً على سبيل الاستعارة بالكناية. وهو يؤمن بتفوق السيف على الكتب مقارناً بينه وبين علم التنجيم فيهنأ. بما يذكره المنجمون من أيام السعد وأيام التحس وما يذهب إليه المنجمون من تقسيم الأبراج إلى ثابتة ومنقلبة وتحكمها في طوابع الناس والأحداث وهو يعرضها عرضاً طريفاً، إذ تدور في أوعية الطباق والجناس والتصوير وظهرت في هذه القصيدة آثار أخرى مختلفة للثقافات الإسلامية والعربية واليونانية^٢. وهناك نماذج كثيرة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة.

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج ١، ص ١٧. دهيا: الداهية؛ الحادث العظيم. الكوكب الغربي ذو الذنب: هو الكوكب المذنب الذي ظهر في السنة التي أراد المعتصم أن يغزو فيها فتشام الناس، وهو ما يعرف اليوم باسم مذنب هالي. الأبرج: جمع البرج، وهو الفلك الذي هو مسير الكواكب. مرتبة: ترتب مصير العالم.

٢- تاريخ عرب، ص ٤٨٢.

٣- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٢٥٩.

المدح وإدخال البديع

توجد في تلك القصيدة أيضا الموضوعات الجمّة التي ترتبط بالبدیع لأنه يتعمّد استعمالها كثيراً في أشعاره المدحية و لهذا صار مشهوراً بإدخال هذا الفن في الشعر العربي بشكل واسع، حيث يقول مثلاً: «في حدّة الحدّ بين الحدّ واللعب» من قوله الذي مرّ أعلاه، حيث استخدم صنعة الجناس أو التجنيس. ويقول في البيت الثاني: «بيض الصفائح لا سوّد الصفائح»، حيث استخدم صنعة التضاد بين البيض والسود وصنعة الجناس بين الصفائح. بمعنى السيف العريض والصفائح. بمعنى القراطيس المكتوبة.

وقال من قصيدة بمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني: [الكامل]

وَعَدْتُ بَطُونٌ مِئِي مِئِي مِنْ سَبِيهِ وَغَدْتُ حَرَى مِنْهُ ظُهُورُ حِرَاءِ^١

فبين (مئى ومئى) جناس ناقص، حيث الأولى يقصد بها منطقة مئى المعروفة في مكة والتي هي من شعائر الحج، ويقصد بالثانية جمع مئية. وبين (حَرَى وحِرَاءِ) جناس ناقص كذلك، حيث يقصد بالأولى مسكونة ويقصد بالثانية جبل حِرَاءِ بمكة. وقال بمدح عمر بن مالك بن طوق التغلبي، ذاكراً قوم

المدوح: [الكامل]

هم رهطٌ مَنْ أَمْسَى بَعِيداً رَهْطُهُ وَبَنُو أَبِي رَجُلٍ بَغِيرِ بَنِي أَبِي^٢

فقد مدحهم بالكرم والأريحية والضيافة وإشراق الوجه والبشر، كل ذلك كنايةً وليس تصريحاً، بحيث يُشعرون الغريب أنه بين قومه وأهله.

وقد استمدت في مدائحه من قانون الأضداد في وصف المدوح، حيث نرى هذه الظاهرة واضحة في

الآيات التالية حول الصداقة التي عبّر عنها تعبيراً بديعاً وضمّنها المعاني اللطيفة: [الكامل]

إِنْ يُكَدِّ مُطَرَّفُ الْإِحَاءِ فَإِنَّنَا نَعْدُو وَنَسْرِي فِي إِحَاءِ تَالِدِ
أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوَصَالِ فَمَاؤُنَا عَذْبٌ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُولَّفُ بَيْنَنَا أَدْبٌ أَقْمَنَاهُ مُقَامَ الْوَالِدِ^٣

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج ١، ص ١٧.

٢- المصدر نفسه، ص ٦٥.

٣- أبو تمام، ديوان، شرح إيليا الحاوي، ص ١٧٢-١٧٣. وقوله: يُكَدِّ يَقْلُّ بِلَوْغِ الْغَايَةِ. قال في المعجم الوسيط أكدى الحافر بلغ الكدية فلا يمكنه أن يحفر وافتقر بعد غنى والمعدن كدي والعام أجدب وفلاناً عن الشيء رده عنه. والظريف الطيب النادر والحديث المستحسن والمستفاد من المال حديثاً ويقابله التليد أو التالد (ج) طرف وطراف. وغدا غدواً ذهب غدوة وذهب وانطلق يقال اغد عني وعليه غدوا وغدوا وغدوة بكر ويقال غدا إلى كذا أصبح إليه.

يقول الشاعر لصديقه علي بن الجهم الشاعر المعروف: إن تكن الأخوة الحديثة عقيمة عديمة الثمار فإنّ صداقتنا ليست كهذا الضرب من الصداقة، بل هي أحوّة و صداقة قديمة لا تفسد ولا تزول لأنّها معنا بكرة وأصيلاً، ليلاً ونهاراً. وإن يتغير طعم الوصال ولونه في بعض الأحيان فإنّ ماء وصالنا طيب مستساغ لأنّه نزل من سحابة واحدة. وإذا لم نكن من أصل واحد ولا يجمع بيننا نسب فإنّ الأدب الذي نمتلكه والمقدرة الأدبية التي نتحلّى بها هما الرباط المقدس الذي يجمع بيننا بدل الوالد والنسب والأصل الواحد.

نشاهد في الأبيات المذكورة أعلاه الأضداد بين كلّ مصراعين فنشاهد في البيت الأول "مطرّف الإخاء" بمعنى حديثه و"الإخاء التالد" بمعنى قديمه، و"نغدو ونسري"، أي نذهب غدوةً ونعود ليلاً، وفي البيت الثاني "يختلف ماء الوصال" و"ماؤنا من غمام واحد"، وفي البيت الثالث "يفترق نسب" و"يؤلف أدب"، وهذه ظاهرة مبتكرة في المدح. وقد استخدم الاستعارة المكنية كثيراً كأسلوب لتجسيم أسماء المعاني ورسم الصور الحيّة الناطقة، وخاصة في كلمة "الإخاء" في شطري البيت الأول وكلمتي "نسب" و"أدب" في البيت الثالث وهاء الضمير في "أقمناه".

مزج المدح بالطبيعة

لقد ربط أبو تمام ربطاً جيداً بين شخصية المدوح والطبيعة بشكل عام، كما في الأبيات التالية التي يمدح فيها عبد الملك الزيات: [البسيط]

ألوى بصيرك إخالق اللوى وهفاً	بلبلك الشوق لما أفرّ اللببُ
حفّت دموعك في إثر الحبيب لدن	حفّت من الكُتب القُضبان والكُتبُ
من كلّ مكورة ذابّ التّعيم لها	ذوبَ العمام فمُنهلٌ ومنسكبُ

وسرى الليل سرّياً وسراية وسرى مضى وذهب وفي التنزيل العزيز (والليل إذا يسر) ويقال سرى الهم والليل وبه قطعه بالسير ويقال سرى بفلان ليلاً جعله يسير فيه. واختلف الشبان لم يتفقا ولم يتساويا.

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التريزي، ج ١، ص ١٣١-١٣٢. وقوله: ألوى بصيرك، يقال: «ألوى بالشيء» إذا ذهب به وأهلكه و «ألوى» مستدق الرّمْل و «اللبب» نحو ذلك وربما قالوا (اللبب) مقدم الكتيب وقد يعبرون عن: اللوى واللبب. «بمنقطع الرّمْل، و ذلك كله متقارب في الحقيقة. وأخلق الثوب والجلد وغيرهما بلي ... والسائل ماء وجهه بذله في السؤال. وهفا في المشي هفوا وهفوانا أسرع وخف فيه ... والنفس إلى الشيء حنت واشتاقت أو طربت والقلب خفق. واللبُّ من كل شيء خالصه وخياره ونفسه وحقيقته ولبُّ الجوز واللوز ونحوهما ما في جوفه والعقل (ج) ألباب. وخفّ الشيء خفاً وخفة قل ثقله ... وإليه خفاً وخفة وخفوا أسرع ونشط وعن المكان ارتحل مسرعاً فهو خف وخفيف. وحفّ الشيء خفاً وحفاً استدار حوله وأحرق به ويقال حف الشيء بالشيء و حوله

يقول في البيت الأول: أهلك شدة صبرك الخراب الذي طالعه، وأثار شوقك وحزنك عند رؤية منازل أروية مقفرة من أهلها. و في البيت الثاني يقول: إنّ دموعك صاحبت الأحبة عند ذهابهم و قد قرن حضورهن بالأغصان وأردافهنّ بالكتبان فالقضببان كناية عن القدود و الكتيب كناية عن الأرداف.

مدح شعره ثم إهداؤه للممدوح

لقد أنشد أبو تمام أشعاراً مدح فيها كلامه و شعره ثم أهداها إلى الممدوح. وقد كانت هذه القضية من أروع إبداعاته التي تتبعها الشعراء الذين كانوا بعده، كالمتنبي، نحو قوله من قصيدة يمدح فيها المعتصم: [الكامل]

فالأرضُ دارٌ أقفرتُ ما لم يكن من هاشمٍ ربُّ لتلك الدارِ
سورُ القرآنِ العُرِّ فيكم أنزلتْ ولكم تُصاغُ محاسنُ الأشعارِ^١

يقول في الأشعار المذكورة إنّ الأرض كلها كدار خلت من الناس والماء والأشياء الأخرى ما لم يكن فيها سيد من قوم بني هاشم يحكمها، حيث إنّ آيات القرآن الكريم وسوره الشريفة قد نزلت في تلك القبيلة فلهذا تُصاغ لكم أفضل الكلمات وأتمّ المعاني على هيئة مخصوصة في أشعار جميلة حسنة، و مراد الشاعر بالأشعار الحسنة الجميلة (محاسن الأشعار) هي الأشعار التي أنشدها بنفسه. فيكون بذلك قد مدح كلامه، حيث يقول إنّ تلك الأشعار هي من أحسن الأشعار التي جعلتها خاصة لكم و هذا قول بديع ومبتكر في المدح. وقد استفاد الشاعر من الاستعارة المكنية في قوله (ولكم تُصاغ محاسنُ الأشعار)، حيث شبه (محاسن الأشعار) بحلية ونفسه بصائع لتلك الحلية لرسم صورة جميلة بحذف المشبه. وفي (تُصاغ) استعارة تبعية. و(محاسن الأشعار) تركيب إضافي من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

وقد تأثر به المتنبي في مدائحه، حيث يقول، مثلاً، في مدح سيف الدولة: [الطويل]

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فإتاك معطيه وإني ناظم^٢

و من حوله و يقال أيضا حف الشيء بالشيء. والقضب الغصن والغصن المقطوع وشرط طويل ممدد من الصلب تسير عليه القطر (محدثه) والسيف القاطع (ج) قضبان (المكورة) المرأة ذات الساق الغليظة المستديرة الحسنة. واهل المطر هل ويقال اهل الدمع تساقط واهلت السماء نزل مطرها واهلت العين تساقط دمعها. وانسكب انصب.

١ - أبو تمام، ديوان، ج ١، ص ٣٤٢. وقوله: أقفرت خلت. والقران هو القرآن، حذف الهزرة منه تسهيلاً. العرّ: البيض.

٢ - المتنبي، ديوان، ج ٢، ص ١٠٢٨.

يريد المتنبّي بالدّر شعره و يقول المعاني لك بأفعالك الكريمة و أنظمتها بنفسي فاللفظ لي و لهذا أحمدك على هذا. فالمتنبّي مدح كلامه بارزا كما في البيت و أهدها إلى ممدوحه سيف الدولة و مدحه أيضا و في مثل هذا يقول ابن الرومي أيضا: [الوافر]

ولا تبنوا مقالَ الإفكِ فيه فليسَ لما بنى الله الهدامُ
منحتك من حُلّي الشعرِ عقداً غداً لك درّه ولي التّظامُ^١

يقول الشاعر في مدح الممدوح: ولا تسعوا للافتراء على شخصيته لأنه من أبنية الله و لهذا لا يكون لها انقضا فأتت لاستطيع أن تهدمها. ويقول في البيت الثاني: أنا أعطيتك الشعر الجميل كالزينة و كالحلّي التي تزين جيدك و تحلّي رقبك على شكل قلادة معجبة، حيث صار لك لؤلؤه الجميل ولي منه الخيط الذي ينتظمه ويقومه.

فابن الرومي، حين مدح ممدوحه اعتبر شعره من أحسن الأشعار و وصفه بالحلّي التي يزين بها الممدوح نفسه وهذه الأشعار المدحية كلّها من قبله وهو قوامها وبيده نظمها، ولولاه لما اتظمت ولانقرط عقدها وتناثرت حبتّها. وقد رأينا كيف أنّ الشاعر بعد مدح كلامه وافتخاره به، كيف أهدها إلى ممدوحه، فهذا دليل آخر على تأثر ابن الرومي بمدائح أبي تمام لأنّ هذا الفن من إبداعاته الطريفة في العصر العباسي.

الملاءمة بين المدح والممدوح

يقول أبو تمام من قصيدة مدح فيها ابن الزيات، الكاتب المشهور ووزير الدولة العباسية: [الطويل]

لك القلمُ الأعلى الذي بشبّاتِهِ تُصابُ من الأمرِ الكُلّي والمفاصلُ^٢

فقد "الكُلّي والمفاصل" كناية عن المقاتل و المعنى: إنّ لك من البلاغة ما تجهز به على مشكلات الأمور. فهو يقول في البيت: بأن قلمه لشدته وحدّته يقطع الأمور المعقّدة ويفصلها كما أنّ السيوف الماضية تقطع الكلى و المفاصل دون بّطء، يعني أنّ قلمه قوي لأنه يستطيع أن يكتب على أفضل وجه و يصدر أوامر مهمة و يرسلها إلى سائر كبار الدولة في أرجاء القطر و عليهم أن يطيعوا فرامينه المكتوبة المفروضة و الشاعر يلائم بين القلم و شخصية الممدوح لأنّ ابن الزيات كان كاتباً مشهوراً في ديوان الحكم إضافة إلى وزارته فهذه المناسبة استعمل الشاعر كلمات تناسب الكتابة والوزارة و جعل "الكُلّي" و «المفاصل» مثلاً لحقائق الأشياء و أصل ذلك أنّ الضارب إذا إصاب المفصل بلغ ما يريد من

١- ابن الرومي، ديوان، شرح أحمد حسن بسج، ج٣، ص ٢٨٣- ٢٨٤.

٢- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج٢، ص ٥٧.

المضروب وأن الرامي إذا أصاب كلية القنص فقد أثبتته ولولا سرّ هذه الأقلام لما انتظم أمر الملك فإذا مدح كاتباً مشهوراً مثل ابن الزيات نوّه بأدبه وبلاغته وقدرته على خلق الألفاظ والمعاني الجيدة.

المبالغة في الوصف

لقد حول أبو تمام الوصف في المدح إلى ملاحم كبرى جسّم فيها بطولات المدوحين وتكلم عن أيامهم وشخصها بشكل خطابي، نحو: [البيسط]

فتُحُ الفُتُوحُ تعالَى أن يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مَنَ الشَّعْرِ أو نَثْرٌ مَنَ الحُطَبِ
فَتُحُّ تَفْتَحُ أبوابُ السَّماءِ لَهُ وَ تَبْرُزُ الأَرْضُ في أَتوابِها القُشْبِ
يا يَوْمَ وقعةِ عَمورِيَّةٍ انصَرَفَتْ مِنْكَ المَنى حُفلاً مَعسُولَةَ الحَلبِ

ففي فتح الفتوح الذي لم يُرَ فتح مثله «تبرز الأرض» مثل لتعظيم الفتح و مسرّة أهل الإسلام و «تفتّح أبواب السماء» أي بالغيث و الرّحمة و يقول في الأبيات المذكورة بأنّ الأشخاص لا يستطيعون أن يصفوه كما هو لأنّ هذا الفتح، فتح له كلّ ما يشاء وهذا الوصف شبيهه بملحمة قصيرة و في «يا يوم...» إتسع في النداء حتى كأنه خاطب يوم وقعة عمورية لجلاله عنده و«حُفّ» هاهنا مستعار للمني و «الحلب» كذلك و لهذا نحن امام يوم كبير الذي شخصه الشاعر بشكل معجب و يقول إن ما كنّا نتمنّى و نريد حصوله في هذا إليوم من الانتصار قد حصل و عادت الاماني كأنها نياق مكتنزة اللبن مزج لبنها بالعسل و قلّما نجد هذه المعاني الطريفة بشكل منظم غير هذا الشاعر.

النتيجة

شاع المدح في العصر العباسي الثاني بسبب عوامل مختلفة، منها: التكسّب و خشية الفقر و طلب المجد و التقرب إلى الخلفاء و غير ذلك. ولكننا يمكننا أن نعتبر أبا تمام شاعراً مبدعاً في هذا الفن من بين الشعراء الكثيرين لما أبدعه من الأمور التالية التي توجد في مدائحه بشكل منسجم. فقد استطاع أبو تمام أن يحوّل قصائده التي مدح بها المعتصم و اصفاً شجاعته و شجاعة جنوده، استطاع أن يحوّلها إلى ملاحم نابضة بالحياة و الحركة لما بثّ في جمادها من روح الحياة فجعلها متحرّكة ناطقة. و كما كان يباليغ في مدحه كان يباليغ في وصفه كذلك، فقد كان و صافاً ماهراً، بل رسّاماً مصوراً يعيّن بلوحاته أيما اعتناء وهو لا ينسى في رسمه للطبيعة ممدوحه رابطاً بينه و بين الطبيعة ليمنّ في نهاية المطاف على ممدوحه،

بشكل غير مباشر طبعاً، أنه مدحه بأفضل ما يكون من الأشعار وليتخذ من ذلك ذريعة ليمدح شعره ويُعلي من شأنه أكثر من إعلاء شأن الممدوح.

وفي نهاية المقالة، نرجو أن نكون قد وُفّقنا في تحقيق الهدف المنشود، ولا ندّعي أننا قد أتينا على كافة جوانب الموضوع، فهي كالثلج الطافي على سطح الماء؛ ما خفي منه أكثر بكثير مما ظهر.

المصادر و المراجع

١. الآمدي، الحسن بن بشر. الموازنة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.
٢. ابن خلكان، أبو العباس. معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دارالثقافة، د.ت.
٣. ابن خلكان، أبو العباس. وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دارالثقافة، د.ت.
٤. ابن الرومي، أبو الحسن. ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن تستج، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٤م.
٥. ابن العماد، عبد الحي. شذرات الذهب، بيروت: دارالكتب العلمية، د.ت.
٦. ابن منظور، لسان العرب،
٧. أبو تمام، حبيب. ديوان أبي تمام، شرح: الخطيب التبريزي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٢م.
٨. أبو تمام، حبيب. ديوان أبي تمام، شرح إيليا الحاوي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٨١م.
٩. الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٩٢م.
١٠. البستاني، بطرس. أدباء العرب، بيروت: دار نظير عبود، د.ت.
١١. حتى، فيليب خليل. تاريخ عرب، ترجمة أبو القاسم پاينده، آگاه، ط ٢، ١٣٦٦ هجري شمسي (بالفارسية).
١٢. الحصري، أبوأسحاق. زهر الآداب، شرح: زكي مبارك، بيروت: دارالجيل، ط ٤، د.ت.
١٣. الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تقديم وتنظيم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
١٤. الصولي، أبوبكر. أخبار أبي تمام، قدّم له: أحمد أمين، بيروت: مركز الموسوعات العلمية، د.ت.
١٥. ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصر: دار المعارف، ط ٧، د.ت.
١٦. الفاحوري، حتّا. الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار الجليل، ط ١، ١٩٨٦م.
١٧. العسكري، أبو هلال. الصناعتين، تحقيق: مفيد قمبيحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٩٨٩م.
١٨. المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، شرح عبدالرحمان البرقوقي، دارالفكر، ٢٠٠٢م.
١٩. مجمع اللغة العربية في القاهرة. المعجم الوسيط، الطبعة الخامسة، ١٤١٦ هـ - ١٣٧٤ش، مكتب نشرالثقافة الإسلامية، طهران.